الآداب
المجلد:21، العــدد:01، ديسمبر 2021
الصفحات:235 - 250

نقد النّقد / قراءة في استراتيجياته ورهاناته المعرفيّة

Meta-criticism: Assessing its Cognitive Strategies and Stakes

د. جموعي سعدي[1]

[1] جامعة محمد الشريف مساعدية– سوق أهراس– الجزائر. jemoui_saadi@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021/09/04 تاريخ القبول: 2021/11/11 تاريخ النشر: 2021/12/15

ملخص:

يتحدّد خطاب نقد النّقد أو الميتا نقد بوصفه مجالاً يتّخذ من الخطاب النّقدي موضوعاً له، وينهض على فحص الممارسات النّقديّة ومساءلتها، والكشف عن سلامة أحكامها، وانسجام فرضياتها، واصفاً ومفكّكاً تصوّراتها المنهجيّة، وميكانيزماتها التطبيقيّة، وانتهاءً بالبحث في أبعادها المعرفيّة والإبستيمولوجيّة. ولما كانت مهام نقد النّقد ومراميه على هذا القدر من الأهميّة والجلالة؛ استدعى ذلك قراءة هذا الخطاب ومساءلته، لاسيّما وأنّه لايزال مشروعاً قيد الانجاز، تُطرَح بشأنه أسئلة ملحّة، من قبيل: استقلاليّته عن خطاب النّقد الأدبي، وخصوصيّة منظومته المنهجيّة، علاوة على الرّوافد والمرجعيّات التي يستند إليها هذا الخطاب.

يتغيّا هذا المقال مناقشة جانب من أسئلة نقد النّقد وقضاياه، وتقديم قراءة في أسسه ومنطلقاته، ومناهجه واستراتيجياته، علاوة على تفكيك بعض أنساقه وتصوّراته، في ضوء بعض التّجارب والمنجزات المنضوية تحت عباءته.

كلمات مفتاحية: نقد النّقد، الميتا نقد، المراجعة، القراءة، الوصف، التّفكيك.

Abstract:

The critical criticism discourse or the Meta-criticism is defined as a field that takes the critical discourse as its subject and promotes the examination and accountability of criticism practices, and the disclosure of the soundness of its

المؤلف المراسل: جموعي سعدي.

provisions, and the consistency of its assumptions, through a descriptive account and an in-depth analysis of its conceptual framework; it concludes with research on its cognitive and epistemological dimensions. The tasks and objectives of criticism are of such importance and magnificence as they necessitated assessing and questioning this discourse, especially that it is still a project in progress, and urgent questions are being asked about it, such as: its independence from the literary criticism discourse, the specificity of its systematic approach, in addition to the tributaries and references upon which this discourse is based.

This article intends to discuss some issues and inherent questions of critical criticism. It displays an assessment of its fundamentals and assumptions, as well as its approaches and strategies, in addition to dismantling some of its patterns and perceptions, in light of some of the experiences and achievements under its cloak.
Keywords: Critical Criticism ; Meta-criticism ; the revision ; the assessment ; description ; the dismantling.

1– حفريات نقد النّقد:

إذا كان البعض يتحدّث عن وعيٍ نقدي يصاحب عمليّة الإبداع نفسها، يمكن الوقوف على تمظهراته من خلال عمليّات التّأمّل والتّنقيح والتّقويم ومعاودة النّظر التي يقوم بها المبدعون كرّةً بعد كرّة، فإنّه من باب أولى أن يمتلك النّقاد هذه الملكة، وأنْ يحصّلوا هذا الوعي، ذلك أنّ مجال اشتغالهم المحكوم بصياغة الآراء وإصدار الأحكام، وبناء النّظريّات، يتطلّب عمليّات الفحص والمراجعة والتّمحيص أكثر ممّا يتطلّبها الإبداع. وإذا أمكننا الاستئناس بهذا الرّأي، والاطمئنان إليه، أمكننا التّأكيد على أنّ ظاهرة "نقد النّقد" قديمةٌ، وملازمةٌ للنّقد منذ أقدم عهوده، ومتواشجة معه أشدّ التّواشج.

ويمكن إرجاع البدايات الأولى لنقد النّقد إلى بواكير تشكّل النّقد الأدبي نفسه. ذلك أنّ تفرّع النّظريّات وتعدّدها، واختلافها بعضها عن البعض الآخر، نتج عنه نوعٌ من النّقد الضّمني أو الصّريح، لغيرها من النظريّات[1].

إنّ أبرز سمةٍ من سمات القرن العشرين، هي كونه قرن الانفجار المعرفي والزّخم الثّقافي، والرّكام المعرفي الهائل؛ فقد تراكم في هذا القرن من المعارف والعلوم والآداب، ومختلف النّتاجات

الفكريّة والفلسفيّة ما لم تراكمه الإنسانيّة عبر مجمل تاريخها، ولعلّ هذا الزّخم العلمي والرّكام المعرفي، هو ما يستدعي بحكم الضّرورة تخصيص محطّات للمراجعة والنّقد.

وقد شهد النّقد الأدبي شأنه شأن غيره من حقول النّشاط الانساني خلال هذا القرن ثورةً حقيقيّة، تعبّر عنها وتعكسها منظومة المناهج المختلفة السّياقيّة منها والنّسقية. علاوةً على كثرة المؤلفات وتنوّعها، وهذا ما استدعى انبثاق حقلٍ معرفي جديد تكون مهمّته مراجعة زخم الانجازات والوقوف على الآليات، والتّنبيه إلى النّقائص والسّلبيّات، وهذا ما يمنح الشّرعية لخطاب نقد النّقد، ويعكس أهمّيته.

ويذهب أصحاب "**المعجم الأدبي**" إلى الرّبط بين الانفجار النّقدي الذي عرفه القرن العشرون، وبين نشأة نقد النّقد، إذْ يمثّل هذا القرن بحقٍّ عصر النّقد، فلم تحظ التعليقات النّقدية في يومٍ من الأيّام بالأهمّية مثلما هي الآن؛ إلى الحدّ الذي جعل النّقد بدوره يصبح موضوعاً للدّراسة[2].

ولما كان تقدّم المعرفة في أيّ فرعٍ من فروعها، مشروطاً كما يرى جابر عصفور: «بالدّرجة التي ترتدّ بها هذه المعرفة إلى ذاتها، وقدرتها على أن تتجلّى نفسها في مرآة منهجها التي هي إيّاها، والتي تساعد على تأسيس وإعادة تأسيس علاقاتها الذّاتيّة والغيريّة.»[3] فإنّ تزايد وعي النّقد بنفسه، من خلال انكبابه على تفحّص مناهجه وآلياته، هو ما أثار اهتمام كثيرٍ من الباحثين والمفكّرين بنقد النّقد، فتنبّهوا إلى الحاجة الماسّة لوجوده، وما يمكن أن يضطلع به من مهمّاتٍ، وما هو منوطٌ به من مسؤوليّات.

وقد أضحى من المؤكّد أنّ التطوّر الأهمّ، الذي يجسّد البدايات الفعليّة لوعي نقد النّقد بهوّيته الخاصّة، ويترجم للاقتراب من تأسيس نظريّة نقد النّقد على أسسٍ موضوعيّةٍ، قد كان حصيلة جهود النقّاد المحدثين في القرن العشرين[4].

ذلك أنّ النّقد الحديث بمختلف مدارسه وتيّاراته –كما يلاحظ عبد السّلام المسدّي– قد تحوّل بعد العمل على تثبيت أسسه ومنطلقاته النّظريّة، وتدقيق مقارباته التّطبيقيّة، والكشف عن

مصادراته المنهجيّة: "ارتدّ راجعاً بحصيلته الإجرائيّة على الأدب: يحاول ضبط مفهومه مدقّقا تعريفه ومتحسّساً رسم حدّه... ولكنّه وجد نفسه كذلك محمولاً على مراجعة ذاته، يحدّدها من جديدٍ في ضوء ما استخلص من مسيرته الطّويلة في معاشرة النّصوص... وهكذا كان النّقد يحاور الأدب ثمّ أصبح النّقد يحاور النّقد من خلال محاورته الأدب"[5].

ولئن كنّا نجزم بوجود ارهاصاتٍ قديمةٍ لنقد النّقد، فإنّنا نجزم أيضاً بأنّ تلك الارهاصات كان يعوزها الوعي بذاتها، ويتزامن هذا الوعي وتأسّسَ نقد النّقد كمجالٍ معرفي قائمٍ بذاته، ويعتبر أساساً له في الآن ذاته، وهذا ما يؤكّده المسدّي إذْ يقول: "ولئن كان شيءٌ من كلّ هذا (يقصد شذرات نقد النّقد) مبثوثاً بين طيّات النّقد في الماضي فإنّ حصوله بضربٍ من الوعي الواضح، بل وبشيءٍ من الوعي الحادّ أحياناً... هو الذي حوّل القضيّة إلى سمةٍ بارزةٍ من سمات الوضع المعرفي الرّاهن. ولأوّل مرّةٍ يتبلور ضمن متصوّرات النّظريّة النّقديّة وبين جداول قاموسها الاصطلاحي مفهوم نقد النّقد"[6].

ويرى جابر عصفور أنّ أكثر المظاهر التي تسترعي انتباه متتبّع المشهد النّقدي الحديث أنّه ينطوي على درجةٍ عاليةٍ من الوعي بالذّات، وأنّه في الوقت الذي يؤكّد الحضور المستقلّ للأعمال الأدبيّة، يؤكّد الحضور المستقلّ لنفسه بوصفه مؤسّسةً، أو بنيةً من الممارسات الخاصّة، أو مجالاً معرفيّاً متميّزاً بذاته[7].

ويتجلّى هذا الوعي الذّاتي فيما يرصده عصفور من مظاهر، لعلّ أبرزها: الكتابات الوفيرة التي تتناول تاريخ النّقد الأدبي، والدّراسات التي تحاول تصنيف حاضر النّقد. إضافة إلى الجهود النّقديّة التي تحاول تتبّع المداخل والمناهج والمصطلحات. وأيضاً تلك الوفرة الوفيرة من الدّراسات التي تعمل على مراجعة النّشاط النّقدي، والمنضوية تحت مظلّة نقد النّقد[8].

2- مفهوم نقد النّقد:

لعلّ محاولةً تتغيّا تقديم تحديدٍ لخطاب نقد النّقد؛ يمكنها التّعويل على تصوّر رولان بارت في تحديد مفهوم النّقد الأدبي، والانطلاق منه لصياغة تعريفٍ لمفهوم هذا الخطاب، طالما أنه يتقاطع مع

خطاب النّقد الأدبي، ويقوم على شبكة صلات ووشائج تجمعه به؛ لعلّ في مقدّمتها اندراج كليهما في منطقة "الكلام على الكلام"، أو "الخطابات الواصفة" أو الشّارحة. فالنّقد الأدبي –وفق ما يرى بارت– خطابٌ على خطاب، أو هو لغةٌ ثانية موضوعها لغة أولى هي لغة "الإبداع الأدبي"؛ يقول "رولان بارت" محدّداً العلاقة بين النّقد والإبداع: "يتحدّث الرّوائي أو الشّاعر عن أشياء وظواهر خياليّة، كانت أم حقيقيّة... إنّ العالمَ موجودٌ والكاتب يتكلّم، هذا هو الأدب. أمّا هدف النّقد فمختلفٌ، فهو لا يتعامل مع العالم، بل مع الصّياغات اللّغوية التي قام بها آخرون لهذا العالم، إنّه خطابٌ على خطابٍ، إنّه لغةٌ ثانيةٌ أو لغةٌ واصفة"[9].

فمثلما أنّ النّقد الأدبي هو "لغة ثانية" واصفةٌ أو شارحةٌ، موضوعها "لغة أولى" قوامها تحويل العالَم إلى كيان رمزي/ لغوي هي "لغة الأدب"؛ كذلك "نقد النّقد" هو خطابٌ واصفٌ، أو هو لغةٌ ثانيةٌ تنهض على اتّخاذ النّقد الأدبي –بوصفه بناءً لغوياً– متناً تروم وصف أنساقه وأنظمته، والكشف عن مبادئه وميكانيزماته، وتفكيك أبنيته؛ إنّه بعبارة "جابر عصفور": "نشاطٌ معرفي ينصرف إلى مراجعة الأقوال النّقدية، كاشفاً عن سلامة مبادئها النّظريّة وأدواتها التّحليليّة وإجراءاتها التّفسيريّة، أو النّقد الواصف من حيث هو تأصيلٌ معرفي للمقولات العقليّة التي تنطوي عليها المفاهيم المنهجيّة والعمليّات الإجرائيّة للنّقد أو القراءة وتصدر عنها"[10].

ويذهب "عبد السّلام المسدّي" هو الآخر إلى تحديد نقد النّقد انطلاقاً من مهمّته، أو وظيفته يقول: "فنقد النّقد يستنهضك إلى التبصّر بما يكمن وراء الظّاهرة الأدبيّة ووراء العمليّة النّقديّة في نفس الوقت من متشابكات يتعاون كلّ من الأدب والنّقد على إخفائها، فهو بذلك يستحثّك أن تهتك الحجب والأستار فتنفذ بعين التبصّر وروح الاعتبار إلى حيث يغيب بصر الآخرين"[11].

ويقرّر "باقر جاسم محمّد" أنّ قراءة نقد النّقد ذات جوهرٍ حواريٍّ متعدّد الأطراف. وهي تدفع القارئ إلى العودة إلى النصّ الأدبي، كما إلى النّقد الذي تناوله، وذلك بغيةَ تكوين تصوّرٍ

منصفٍ. كما أنّها تعيد طرح الأسئلة المعرفيّة المرتبطة بتلقّي النّصوص الأدبيّة. ومن هنا كان الاحتكام إلى النّص وسيلةً حاسمةً في ترجيح أحكام النّقد، أو أحكام نقد النّقد[12].

ويحدّد "محمّد الدّغمومي" نقد النّقد استناداً إلى تفحّص طبيعته، وحدود علاقته بغيره من الخطابات المماسّة له، وأيضاً بالنّظر إلى موضوعه، ومهامّه ووظائفه؛ يقول: "إنّه بناءٌ معرفي إجرائي وظيفي يعمل باستراتيجيّة واحدةٍ وينتج معرفةً تصبّ في مجرى المنهجيّات وتعمل باستراتيجيّة ليست أبداً استراتيجيّة التّنظير أو النّظريّة الأدبيّة أو النّقد، وإنّما تستهدف من خلال معرفة طبيعة الممارسة النّقديّة (آلياتها مبادئها، غاياتها معرفتها) إلى أحد المرامي الآتية: كشف الخلل فيها تدعيم هذه الممارسة؛ تبرير هذه الممارسة؛ تحديد تشغيل الإجراءات في ممارسة منهج ما؛ فحص النّظريّات النّقديّة والأدبيّة بما هي بناءاتٌ معرفيّة"[13].

ويعدّ "محمّد برّادة" نقد النّقد: "من أكثر المباحث صلة بنظريّة النّقد وجمالياتها لما يتيح من تفحّص المقولات وتطبيقاتها، والاحتكام إلى درجات التّناسب أو التّعارضات بينها، وإلى رصد الرّؤية والموقف فضلاً عن جدوى "المنهج" كإجراءات وفرضيّات وآليات عمل"[14].

ويربط جابر عصفور بين مفهوم نقد النّقد أو النّقد الشّارح وبين مفهوم اللّغة الشّارحة الذي تبلور في الحقل اللّساني، ويرى أنّ الدّلالات الكبرى التي وظّف بها مفهوم النّقد الشّارح مستعارة من مفهوم اللّغة الشّارحة، وأنّ وظيفة النّقد الشّارح بدورها تناظر وظيفة اللّغة الشّارحة في حقل النّقد الأدبي؛ يقول: "النّقد الشّارح بوصفه الخطاب المعرفي الذي يقوم بأداء دور اللّغة الشّارحة في مجال النّقد الأدبي... وذلك تعريفٌ يندرج في السّياق العام لدلالات اللّغة الشّارحة من حيث هي نظامٌ ثانٍ عن نظامٍ أوّلٍ من الخطاب. ويعني ذلك أنّ النّقد الشّارح ليس سوى اللّغة الشّارحة في مجالات النّقد الأدبي، وأنّه يؤدّي دورها في حقله النّوعي الخاص، فهو إيّاها حين يلتفت النّقد إلى نفسه فيغدو ضرباً من التأمّل الذي يؤسّس فلسفة العلم بالموضوع"[15].

3- موضوع نقد النّقد ووظائفه:

لما كان تعريف الأشياء، وتحديدها وضبط ماهيتها يتمّ بطرائق متعدّدة لعلّ من بينها تعريفها بالنظر إلى الوظيفة التي تؤدّيها؛ فإنّ جابر عصفور يحدّد نقد النّقد وموضوعه واهتماماته بالقول: "إذا كان النّقد الأدبي... هو كلّ العبارات الموجودة عن الأعمال الأدبيّة... فإنّ النّقد الشّارح هو الخطاب الذي ينزل هذه العبارات منزلة الموضوع، ويضعها موضع المساءلة، مختبراً سلامتها المنطقيّة واتّساقها الفكري، ويصعد منها إلى الأنساق التي تحتويها، محلّلاً أبعادها الوظيفيّة ودلالاتها التّأويليّة، مترجماً الأنساق إلى مقولات أو مبادئ تصوّريّة تؤسّس حضور النّظريّة"[16].

وبذلك ففعالية نقد النّقد تبدأ من النقطة التي تنتهي عندها ممارسة النقد الأدبي، فعندما: "تتحوّل أسئلة النّاقد التّطبيقي إلى إجاباتٍ كاشفةٍ يصوغها الخطاب النّقدي... ينتهي عمل النّقد التّطبيقي. وفي الوقت نفسه، يتحوّل إلى موضوعٍ يستهلّ به النّاقد الشّارح عمله، في أسئلته التي تبدأ من حيث ينتهي النّقد التّطبيقي. هذه الأسئلة، بدورها، تبدأ من كيفيّة المقاربة المباشرة للنصّ، في جزئياتها التّفصيليّة، لتصعد منها إلى ما هو أشمل منها، حيث الأفق التّأويلي (الهرمنيوطيقي) لنظريّات التّفسير"[17].

وعلى الرّغم من أنّ مهام نقد النّقد متباينة، وغير متّفق عليها بين الدّارسين؛ فهي تقف عند البعض عند حدود وصف الخطاب النّقدي، في حين تنتهي عند البعض الآخر إلى تشريح هذا الخطاب، وتفكيك بنيته، وتقويض مقولاته؛ للكشف عن مضمراته، وما يندسّ في أصقاعه من أنساق تحدّد وجهته وتتحكّم في منطلقاته وتصوّراته؛ فإنّنا سنعرض لبعض تحديدات النقّاد لهذه المهام، للوقوف على المواقف المتباينة والرّهانات المختلفة التي يعوّل على خطاب نقد النقد أن يرفعها.

نجد جابر عصفور مثلاً يحصر مهامّ نقد النّقد في ثلاث وظائف: تتعلّق أولاها بعمليّات الفحص والمراجعة التي يجريها نقد النّقد على النّقد التّطبيقي، منطلقاً من توصيفه متناولاً اصطلاحه، والانسجام بين عمليّاته الإجرائيّة، فاحصاً سلامة مبادئه وفرضيّاته الأساسيّة[18].

أمّا المهمّة الثّانية من مهامّ نقد النّقد في نظر عصفور فهي تفسيريّة: "ذلك أنّ فعل الاستنطاق الذي يقوم به هذا النّقد فعلٌ تأويلي في جانبٍ منه، فهو قراءةٌ تبحث عن دلالةٍ في قراءةٍ وَجَدت دلالة... أعني أنّه سلسلة عمليّات عقليّة تنطوي على محاولة اكتشاف عناصر تكوينيّة لخطاب نقد تطبيقي بواسطة تفكيك هذا الخطاب..."[19].

والمهمّة الثّالثة والأخيرة من مهامّ نقد النّقد، هي التّأصيل، وتتمّ على مستوى منهجي خالص، إذ هي كما يرى عصفور، نوعٌ من المراجعة الشّاملة التي تعنى بالمفاهيم والتّصوّرات الكلّية التي ينطلق النّقد عادةً من التّسليم بها. وترتبط هذه المهمّة بتأمّل موضوع النّقد الشّارح داخل سياقٍ محدّدٍ من علاقات إنتاج المعرفة النّقدية، على نحوٍ لا يفصلها عن مرجعيّاتها الفلسفيّة، وعن المعرفة الإنسانيّة عامّة ولا يعزلها عن اللّحظة التّاريخيّة لإنتاجها[20].

ومع المهمّة الأخيرة -كما يحدّدها جابر عصفور- يتحوّل نقد النّقد إلى تقديم مراجعةٍ ابستيمولوجيّةٍ شاملة، تطال مسألة المنهج، والمفهوم، والتّصوّرات النّقدية عامّة، ويتجاوزها إلى تأمّل آليات انتاج المعرفة النقديّة، في ظل تواشجها مع غيرها من الحقول المعرفيّة المجاورة لها، وفي ضوء تعالقاتها بالشّروط التّاريخيّة التي نتجت في كنفها.

أمّا باقر جاسم محمّد، فبعد التّأكيد على اختلاف موضوع نقد النّقد، عن موضوع النّقد الأدبي، وعلى استقلاله -أي نقد النّقد- بوصفه حقلاً معرفيّاً له آلياته ومصطلحاته الخاصّة، ينتهي إلى تقرير جملةٍ من الوظائف والمهام التي يضطلع بها خطاب نقد النّقد، ويحصرها في النّقاط الآتية:[21]

- انجاز قراءةٍ مزدوجة، تتناول النصّ النّقدي من جهةٍ، والنّص الابداعي من جهةٍ ثانية، بغية الوقوف على سلامة منطلقات النّقد وانسجام فرضيّاته، وتماسك آليّاته، ولتدعيم الأطروحات التي يقدّمها ناقد النّقد.

– تفكيك المقولات النّقدية للوقوف على الحمولات الأيديولوجيّة القابعة خلفها، والمتكتّمة في أصقاعها. والكشف عن دوافع النّقاد في تبنّي منهجٍ نقديّ دون سواه، وفضح الأنساق المضمرة، التي تعمل كمحدّدات وموجّهات تتحكّم في صياغة وتوجيه القراءة النّقديّة.

– الكشف عن صيرورة النّقد الأدبي وتحوّلاته.

– دراسة اللّغة النّقدية والوقوف على آلياتها، وتحديد خصوصيّاتها، باعتبارها لغةً تنزع إلى مراعاة خصوصيّة موضوعها من ناحيةٍ، بقدر ما تحاول الوفاء للالتزامات المنهجيّة والمعرفيّة لحقلها من ناحيةٍ ثانية.

أمّا الوظيفة الأخيرة في نظر جاسم محمّد فهي ذات طبيعةٍ بيداغوجيّة وتتلخّص في عمل نقد النّقد على إعادة تشكيل وعي القارئ، للتبصّر بما يتجاوز مسألة فهم النّقد الأدبي، إلى الوعي بمسألة الكيفيّات التي ينهض عليها، وينبني بها الخطاب النّقدي.

4– استقلاليّة نقد النقد:

على الرّغم من قدم ظاهرة نقد النّقد، وارتباطها في نشأتها الأولى بذلك الوعي النقدي الذي لربما كان يصاحب الممارسة النقدية، ويوجّه خيارات النّقاد المنهجيّة، ويدفع بهم إلى تسويغ منطلقاتهم، وتبرير تحيّزاتهم، ويحثّهم على زعزعة اليقينيات الرّاسخة في الخطاب النقدي، وإخضاعها للفحص والمساءلة. بالإضافة إلى كثرة وتنوّع الدّراسات في هذا الحقل، وكثافتها، إذْ تفرّغ له عددٌ من الدّارسين، وأفردت له الكتب والمقالات؛ إلاّ أنّ: "هذه الكتابات في مجال نقد النّقد على كثرتها وتنوّعها، قد بقيت حتّى الآن تدور في فلك النّقد الأدبي والردّ على مزاعمه النّظريّة والتّطبيقيّة. ولم تنهض بما يجعل منها نظريّة مستقلّة في نقد النّقد"[22].

وقد أثار هذه الإشكاليّة غير باحث، فذهبت "نجوى الرّياحي القسنطيني" إلى أنّ: "ثمّة نزعة إلى اعتبار نقد النّقد خلاءً من الكيان الفكري والمفهومي تارةً، ومدرجاً ضمن النّقد تارةً أخرى"[23]، أمّا "نبيل سليمان" صاحب "المتن المثلّث" فيلحظ أنّ: "ثمّة تضخّم نقدي يقابله ضعف نقد النّقد"[24].

ولعلّ تقرير النّاقد "حميد لحمداني" أنّ: "نقد النّقد مرتبطٌ بنقد الإبداع لا بالإبداع ذاته"[25]. وتأكيده على أنّ: "الموقع الطبيعي لناقد النّقد هو أن يتخلّى عن تبنّي أحد مناهج النّقد الأدبي وأن يترك هذا الاختيار لنقّاد الإبداع أنفسهم، لأنّ المجال الحقيقي لبحثه الخاص ليس هو المعرفة وإنّما معرفة المعرفة"[26]. يجد تبريره في أنّ تداخل وتشابك فعاليتي النّقد ونقد النّقد؛ قد غدا ظاهرةً ملحوظةً ومهيمنة في المشهد النّقدي العربي.

وينتهي "باقر جاسم محمّد" في مقاله الهامّ: نقد النّقد أم الميتانقد: محاولة في تأصيل المفهوم إلى أنّ دراسات نقد النّقد في الثّقافة العربيّة رغم كثرتها وتنوّعها: "قد بقيت حتّى الآن تدور في فلك النّقد الأدبي والردّ على مزاعمه النّظريّة والتّطبيقيّة. ولم تنهض بما يجعل منها نظريّة مستقلّة في نقد النّقد"[27] ويردّ ذلك إلى عددٍ من العوامل أهمّها:

أنّ الجهود في ممارسة نقد النّقد، لم ترقَ إلى مستوى الممارسة الواعية، لماهية حقل نقد النّقد الخاصّة، ولآلياته ووظيفته، فلم يُطرَح سؤال الماهية في هذا الحقل والسّبب في ذلك أنّ نقد النّقد عومل دائماً على أنّه تابع للنّقد الأدبي أكثر من كونه ذا طبيعةٍ خاصّةٍ ومميّزة[28].

أمّا "محمّد الدّغمومي" فيرى أنّ نقد النّقد لم يبلغ بعد درجة العلم المعترف به بين العلوم، أو التّخصّص المستقل تمام الاستقلال، وإنّما مازال نشاطاً يسعى إلى التميّز. إذْ ليس له كيانٌ محدّدٌ تحديداً دقيقاً، وهو أقرب ما يكون إلى "مشروع" في طور الانجاز، تسهم فيه مجموعة اقتراحات ومواضعات[29].

ويحذّر باقر جاسم من أنّ إلحاق نقد النّقد بالنّقد الأدبي كان سيستمرّ طويلاً إذا استمرّ الباحثون والنقّاد في إغفال دراسة مظاهر الشّبه والاختلاف بين هذين الحقلين، ولم يعملوا على توكيد سمات ومظاهر الخصوصيّة التي تميّز أحدهما عن الآخر[30].

ويخلص من فحصه وتأمّله لجانب من الدّراسات والمقاربات المندرجة تحت مظلّة نقد النّقد إلى أنّ هذه: "الجهود العلميّة والبحثيّة، رغم أهمّيتها ورصانتها، لم تنجح في تأسيس بنية نظريّة في نقد

النّقد تسهم في تعزيز استقلال الحقل."[31] وذلك راجع في نظره إلى جملة من الأسباب يوجزها فيما يأتي[32]:

– أنّ هذه الجهود تفتقر إلى الوعي بماهية نقد النّقد ووظيفته، وآلياته.

– أنّها لم تكرّس جهداً نظريّاً وفلسفيّاً لتأصيل مفهوم نقد النّقد، وتحديد أطره النّظريّة، بما يؤكّد تمايزه عن النّقد الأدبي.

– كما أنّ هذه الجهود في نظره لا تقيم تمييزاً بين صورٍ ثلاثٍ لنقد النّقد: أولاها متعلّقةٌ بالنّظريّة العامّة لنقد النّقد باعتباره فرعاً معرفيّاً مستقلاً ومتميّزاً. والثّانية مرتبطةٌ بالمقاربات التي تتناول النّظريّات والمناهج النّقدية. أمّا الثّالثة فهي الخاصّة بنقد النّقد التّطبيقي الذي يُعنى بمناقشة نصوصٍ نقديّة بعينها.

– ثمّ إنّها لم تعمل على بناء نسقٍ مفاهيمي، ولم تؤسّس لترسانةٍ مصطلحيّةٍ خاصّةٍ بنقد النّقد.

5– استراتيجيّات نقد النّقد ورهاناته:

إذا كنّا نسلّم بتبلور نقد النّقد مرتبطاً بتنامي الوعي النّقدي الحديث، وربّما اعتبرناه ثمرةً من ثمراته، فإنّ جابر عصفور يُزامن: "بداية وعي "الأنا المحدثة" في النّقد الأدبي بذاتها وصعود المدرسة الشّكليّة الرّوسيّة، وبخاصّة ما صحب هذا الصّعود من توهّج الرّغبة في خلق علمٍ أدبي مستقلٍ، انطلاقاً من الخصائص المحايثة للمادّة الأدبيّة..."[33].

ولعلّ هذا الوعي النّقدي الذي يعتبر إطاراً مرجعيّاً لتشكّل خطاب نقد النّقد قد تبلور مع اسهامات الشّكلانيين الرّوس، وتمييزهم بين وعي الذّات النّاقدة بموضوع النّقد، ووعي هذه الذّات بوعيها بالموضوع. وتعتبر إنجازاتهم في "الأدبيّة" تأكيداً للحضور المتعدّد لأشكال الوعي بالأدب. وإذا كانت الأدبيّة وعياً بالأنساق الكبرى التي تنطوي عليها النّصوص، فإنّها في الآن نفسه وعي الوعي بهذه الأنساق، مترجماً إلى أنساق موازية، تتمثّل في كلام النّظريّة على الكلام النّقدي[34].

وكانت الأبحاث الشّكلانيّة خاصّةً في شقّها اللّساني، ومع عالم اللّغة "رومان ياكبسون" تحديداً قد بلورت مفهوماً اعتبر أرضيّةً صلبةً ودعامةً راسخةً ستستند إليها مجموعةٌ من المفاهيم، ومنها مفهوم نقد النّقد نفسه؛ هو مفهوم "اللّغة الواصفة"، وهو مرتبطٌ بالوظيفة ما فوق اللّغويّة (أو الواصفة من وظائف اللّغة حسب تحديد ياكبسون.

واللّغة الواصفة: خطاب اللّغة عن اللّغة نفسها. وهي مرتبطة بخصائص اللّغات الطبيعيّة، ومتعلّقة بقدرتها على الانعكاس بما يسمح لها بالحديث عن نفسها. هذه الخاصّية هي واحدةٌ من الخاصّيات التي تسمح بتحديد اللّغات الطبيعيّة. وبالمقابل لا يستطيع أيّ نسق آخر من العلامات الحديث عن نفسه وتوصيفها، ويتحقّق ذلك للّغة بفضل مصطلحات تؤمّن الوظيفة الواصفة كالمصطلحات النّحوية[35].

وعلى هذا النّحو فقد ظهر مصطلح نقد النّقد أو النّقد الشّارح في اصطلاح جابر عصفور: "في موازاة مصطلح اللّغة الشّارحة، ويلحّ كلاهما على الاستخدام النّقدي بوصفهما دالّين على التفات النّقد إلى نفسه، وعلى وعي لغته بحضورها المائز في إشاراتها الذّاتيّة. ويوازي مصطلح "اللّغة الشّارحة" مصطلح "النّقد الشّارح" في دلالة الخصوص داخل سياقات النّقد الأدبي"[36].

ولمّا كانت قراءة نقد النقد تنهض على مساءلة قراءة ناجزة هي القراءة النّقدية، ومحاورتها، والنّبش فيها، واستكناه أغوارها، واستنطاقها وكشف المسكوت عنه فيها، والانتهاء بالتحليق في آفاق تأويلية رحبة استناداً إلى هذه القراءة/ المتن؛ فإنّ ذلك ما يمكّنها من الوقوف على مواطن القوّة ومظاهر التماسك في الخطاب النّقدي، كما يسمح لها باكتشاف مواضع الضّعف والقصور والتردّي في هذا الخطاب أيضاً.

ولأنّ قراءة نقد النّقد تتشكّل من خلال الممارسة التّطبيقية، وتصدر عنها، وتستند إلى النّظر في القراءات النّقدية المنجزة؛ فإنّ ذلك هو ما يؤهّلها للفكاك من احتمالات الاسقاط،

ويجنّبها الوقوع في شرك الرّكون إلى الآراء المسبقة، والأحكام القبليّة. إذ إنّ الجوهر الحواري لهذه القراءة هو شرط علميّتها، وضمان موضوعيّتها.

فخطاب نقد النّقد لا يجنح إلى التّنظير والتّجريد اللّذين ينطلقان من المسلّمات والفرضيات، التي قد تأخذ طبيعة الأحكام المسبقة، والتي قد يقود إثباتها إلى التّعسّف، قدر تأسّسه باعتباره أحكامًا ونتائج صادرة عن فحصٍ وإمعان نظرٍ، وتمحيصٍ وإعمال فكرٍ، ومناقشةٍ وتفكيكٍ لمنطلقات ومسلّمات وأطروحات الخطاب النّقدي؛ وذلك من خلال النّبش في طبقات هذا الخطاب، وسبر أغواره بغية إجلاء سلطان المضمر والمسكوت عنه في هذا الخطاب، والذي يتحكّم في صياغة هذا الخطاب لأطروحاته، واستبنائه لمقولاته.

الهوامش والإحالات:

[1]_ باقر جاسم محمد: نقد النّقد أم الميتانقد محاولة في تأصيل المفهوم، عالم الفكر، الكويت، مج 37، ع 03، يناير- مارس، 2009، ص 107.

[2]_ Paul Aron et Autres, Dictionnaire Du Littéraire, Paris, Puf, 2002, p. 127.

[3]_ جابر عصفور: نظريات معاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص 274.

[4]_ باقر جاسم محمد: نقد النّقد أم الميتانقد محاولة في تأصيل المفهوم، ص 110.

[5]_ عبد السّلام المسدّي: في آليات النّقد الأدبي، دار الجنوب للنشر والتوزيع، تونس، 1994، ص 75.

[6]_ المرجع السّابق، ص 76.

[7]_ جابر عصفور: نظريات معاصرة، ص 267.

[8]_ المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[9]_ Roland Barthes: Essais Critique, Paris, Seuil, Points, 1974, p. 255.

[10]_ جابر عصفور: قراءة التّراث النّقدي، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، ط 01، قبرص، 1991، ص 17.

[11]_ عبد السّلام المسدّي: في آليات النّقد الأدبي، ص 11، 12.

[12]_ باقر جاسم محمد: نقد النّقد أم الميتانقد محاولة في تأصيل المفهوم، ص 120.

[13]_ محمّد الدّغمومي: نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، سلسلة رسائل وأطروحات، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999، ص 52.

[14]_ المرجع السّابق، ص 111.

[15]_ جابر عصفور: نظريات معاصرة، ص 287.

[16]_ المرجع السّابق، ص 287، 288.

[17]_ المرجع السّابق، ص 289.

[18]_ المرجع السّابق، ص 292.

[19]_ المرجع السّابق، ص 293.

[20]_ المرجع السّابق، ص 295، 296.

[21]_ باقر جاسم محمد: نقد النّقد أم الميتانقد محاولة في تأصيل المفهوم، ص 122، 123.

[22]_ المرجع السّابق، ص 108.

[23]_ نجوى الرياحي القسنطيني: في الوعي بمصطلح نقد النقد وعوامل ظهوره، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 38، ع 01، يوليو-سبتمبر2009، ص35.

[24]_ نبيل سليمان: مساهمة في نقد النقد الأدبي، دار الطلعة، ط1، بيروت، 1983، ص5.

[25]_ حميد لحمداني: سحر الموضوع عن النقد الموضوعاتي في الرواية والشعر، منشورات دراسات سيميائية أدبية لسانية، الدار البيضاء، 1990، ص، 11.

[26]_ المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[27]_ باقر جاسم محمد: نقد النّقد أم الميتانقد محاولة في تأصيل المفهوم، ص 108.

[28]_ المرجع نفسه، ص 110.

[29]_ محمّد الدّغمومي: نقد النّقد، ص 50.

[30]_ باقر جاسم محمد: نقد النّقد أم الميتانقد محاولة في تأصيل المفهوم، ص 109.

[31]_ المرجع نفسه، ص 110.

[32]_ المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[33]_ جابر عصفور: نظريات معاصرة، ص 277.

[34]_ المرجع السّابق، ص 279، 280.

[35]_ Joëlle Gardes Tamine et Marie Claude Hubert: Dictionnaire de Critique Littéraire, Tunis, in CRITICA, Cérès editions, 1991, p. 166.

[36]_ جابر عصفور: نظريات معاصرة، ص 271، 272.

قائمة المصادر والمراجع:

1- المراجع العربية:

1- جابر عصفور: نظريات معاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998.

2- جابر عصفور: قراءة التّراث النّقدي، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، ط 01، قبرص، 1991.

3- حميد لحمداني: سحر الموضوع عن النقد الموضوعاتي في الرواية والشعر، منشورات دراسات سيميائية أدبية لسانية، الدار البيضاء، 1990.

4- عبد السّلام المسدّي: في آليات النّقد الأدبي، دار الجنوب للنشر والتوزيع، تونس، 1994.

5- محمّد الدّغمومي: نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، سلسلة رسائل وأطروحات، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999.

6- نبيل سليمان: مساهمة في نقد النقد الأدبي، دار الطلعة، ط1، بيروت، 1983.

2 -المراجع الأجنبيّة:

7- Roland Barthes: Essais Critique, Paris, Seuil, Points, 1974.

8- Joëlle Gardes Tamine et Marie Claude Hubert: Dictionnaire de Critique Littéraire, Tunis, in CRITICA, Cérès éditions, 1991.

3- المجلاّت والدّوريات:

9- باقر جاسم محمد: نقد النّقد أم الميتانقد محاولة في تأصيل المفهوم، عالم الفكر، الكويت، مج 37، ع 03، يناير- مارس، 2009.

10- نجوى الرياحي القسنطيني: في الوعي بمصطلح نقد النقد وعوامل ظهوره، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 38، ع 01، يوليو-سبتمبر2009.